سميرة عزام والنكبة

بقلم عايدة مطرجي ادريس

ما اريد ان انقله اليكم ، هذه اللحظات ، صورة محببة اليكم ، الصورة الحقيقية لسميرة عزام ، الكاتبة والانسانة الفلسطينية التي عاشت قضية شعبها كأعمق واصدق ما يمكن لفلسطيني وعربي ان يعيشها . سميرة عزام ، بهذه الريشة الدقيقة التي ترسم بها ابعاد التشرد والهجرة والعذاب والابواب المغلقة تجعلك تحيا مأساة النكبة وماساة ان يعيش الانسان بلا ارض وبلا جذور تشده الى واحات الطفولة واحلام الشباب ومرقد النهاية . تدخلك الى عالمها الفاجع وتزجك في عذاب ابطالها وحنينهم من دون اية محاولة لاقحامك بالقوة بواسطة الفاظ خطابية او رنانة ، وتعمل في نفسك ما يحمله الفنان الحق من شحنات التعاطف والانصهار . فليست فلسطين بالنسبةاليها في سنوات الهجرة الاولى الا حنينا للحرية وللاشجار البرتقال وللارض الخيرة ، وللسماء السمحاء وللشمس المطهرة . فبلدها يكمن فيانشودة طفل سعيد ، واستراحة قصيرة ، وعودة الى البيت عند الغروب ، وحديث واعد عن غد مشرق ، يتسامر به زوج بعد عناء يوم طويل . اجل ، تلك هي حياة الفلسطيني قبل الهجرة ، وحين ترك ارضه ، فقد هذا كله ، فقد هذه النعمة التي لا تقدر والتي ترتبط على بساطتها باعمق اسلاك عناصر الانسانية في الانسان . بهذه البساطة وهذا العمق ، تصور سميرة عزام الجريمة التي ارتكبها العالم بحقها .

وتمر فترة الحنين المشحونة برصيد الالم والشاعرية ، لتعطيك سميرة عزام صورة اخرى لتطور القضية ، صورة الذين قاوموا الهجرة. وماتوا ابطالا في ساحات الشرف ، ابطالا ليس لديهم من معدات الدفاع اكثر من تلك الروح التي تغلي حنينا وحقدا ورغبة في الانتقام . ان سميرة عزام تجعل الحقد عاطفة انسانية ، مشروعة ونبيلة ، حين يعتمل في صدر رجل قضى حياته يرصف مداميك بيت صغير شهد اجمل ايام حبه ، وفرحة عمره وطفلا بريئا وهبه كل حنانه وكل امل في البقاء ، البقاء ، غريزة الانسان منذ الازل . ثم يترك كل شيء ، ماضيه ومستقبله ، فلا يبقى له الا هذا الحاضر الكئيب الذي يدفعه سريعا عبر الصحراء الكاوية تحت ازيز الرصاص ، وعلى مشهد بركان من الدم يتفجر من الجسد الطريء ، جسد وحيده ، ويسلق يديه وحياته .

ومن الحنين ، الى الحقد ، الى الثار تطور مراحل القضية في قصص سميرة عزام . ان النفس الشاعري يضعف ، وتحل محله نغمة الفداء والبطولة واكل الرغيف المغمس بالدم املا في غد تشرق الشمس فيه من جديد . ويتطور فن سميرة . فبينما نراها تعتمد في اوائل قصصها على التحليل النفسي ، وعرض المشاهد والتعليق عليها ، نراها في المرحلة التالية ، اقل تدخلا واكثر فتنة . انها تصور وتسرد وتقص. ولكنها لا تتدخل ، ولا تعلق ، بل تترك للقارىء ان ينفعل ويندمج ويعلق. ان احراق مخزن مؤونة وكالة الاعاشة يرمز الى تمرد الفلسطيني على الرغيف مقابل صبره وسكوته ، وان انحراف البعض في اعمال اللصوصية والاجرام تعبير فظيع عن نفسية اولئك المواطنين الذين يحيون بلا وطن وبلا مستقبل ، في الوقت الذي تصورهم فيه ، في ظروف اخرى ، مثالا للرجولة والكرامة والانسانية .

وتبلغ سميرة عزام في قصصها الاخيرة مستوى رفيعا ، كارفع ما بلغته القصة القصيرة على الصعيد التكنيكي والفني . وحين تقرأ مجموعتها الاخيرة ، وخاصة القصص التي لم تنشر بعد في كتاب ، يستولي عليك هذا الشعور الحاد الذي تملك الكاتبة وهو وعيها في ما تكتب وحسها العميق بمسؤولية ما تكتب حتى بلغ بها احيانا هذا الوعي الاسراف في الصنعة .

وهذا الوعي ، سلطته حتى على ابعاد القصة . فخدمتها بشتى وسائل الكتابة القصصية والاعلامية ، ولم تكن مندفعة اندفاعا خياليا تطيح بكل صعوبة تعترض الوضع ، في حين انها لم تفقد الامل والعمل للمستقبل ، فكانت القضية التي تعيشها حياتيا تعيشها فنيا ايضا . وقد عبرت عنها في سيناء بلا حدود التي ترمز ، كما حدثتني بها ذات يوم ، الى الخلاص . ولكنها ، كانت ، ككل قصاص عربي مخلص مع ذات نفسه وضميره يقف عاجزا عن استشراف اية نهاية تحمل في طياتها بذور يأس او امل . وكانت تقلب الامل ، لكونه الطريق الوحيد والمبرر الاول الذي يمكن للفلسطيني ان يحيا من اجله .

وبالرغم من ان ابطالها لم يكونوا جميعا من الفلسطينيين فانهم مع ذلك يحملون في نفوسهم هما والما ووحدة قاتلة ، سواء كانوا رجالا ام نساء ام حتى مراهقين . ان الحزن ، هو النغم المسيطر ، والجو الكئيب ينعكس في كل قصة قلقا وتساؤلا عن المصير . وبالرغم من الالم تترك سميرة عزام للامل نافذة مشرعة وابوابا يتسرب منها النور بالرغم من كونها مغلقة .

وفي غمرة هذا النور ، وفي حميا الامل والعمل ، حلت الكارثة وتتابعت الهجرة من جديد ، وعادت المأساة الاولى تتجدد ، اكثر هولا واشد ايلاما منها منذ عشرين عاما ، وعادت الوف الرؤوس تزحف عبر الصحراء ، تشوبها اشعة الشمس المحرقة كما يسيح النابالم دهنها . وعادت العيون تتراكض ، ويتراكض معها الخوف والرعب والموت . والعالم كله يقف متفرجا ، وتنطوي صفحات ويعود الناس من حولها الى همومهم العادية ، ويبتلع الغول ابعادا عربية جديدة . ويسيطر اليأس على سميرة حتى الموت ، هي التي لم تحيا لولا الامل .

اذا قال احدهم ان النكسة الاخيرة ، كانت سببا في نهايتها ، فلا تستغرب . ان حياتها الفنية ، وهي اصدق مظهر من مظاهر التعبير النفسي تشهد على ذلك . ان الحلم الذي يرتعش بنبض العودة يسري في شرايين ادبها ويعطيها نسغ الحياة . فاذا غشي الضباب الكثيف هذا الحلم الجميل كانت النهاية نتيجة حتمية له .

لقد جاهدت سميرة عزام فنيا في سبيل القضية العربية وصورت حنين الفلسطيني وتمرده ونضاله . وترجمة اثارها الى اللغات العالمية من مستلزمات الدعاية العربية وانجعها اثرا التي تعرف العالم على افظع جريمة ارتكبت في هذا العصر : جريمة ان تحرم انسانا من ارضه وسمائه وجذوره العميقة المتشعبة في شرايين التربة المرتوية منذ آلاف السنين بالعرق والدم والاجساد . هل هناك شيء اكثر بداهة ؟ ولكن كم يبدو هذا العالم بليدا ، فاقدا حس الادراك ؟ وبالرغم من بلادة هذا العالم ومن ظلمه ومن لامعقوليته فان الشعب العربي الذي عانى والذي لا يزال يعاني هذه الفاجعة التي هي اكبر فاجعة في تاريخه القديم والحديث لن يتراجع ولن يستسلم ولن يرضخ للظلم . لقد كان التاريخ العربي كله ضد الظلم والظالمين وسيظل هذا الشعب ، امينا على تاريخه ، حريصا على ان يضرب اروع الامثال في التضحية والصراع ضد الظلم وستظل سميرة عزام في ادبها وحياتها عنوانا من عناوين هذا النضال والمقاومة . المقاومة حتى يزول وجه هذا العالم المشوه ، وتعود الارض تحتضن ابناءها الشرعيين .